

الفن من أجل المكفوفين للفنان /"جورج ريسنربو" الربط بين الملموس واللا ملموس



بقلم: "دونالدو التاميرانو"، من نيكاراغوا
ما ستير في الفلسفة، الأدب والفنون المرئية
ليجوس جاليا، الأحد ٩ أكتوبر ٢٠٠٥

العينة الفنية "ما وراء الملموس" التي قدمها الفنان الكولومبي "جورج ريسنربو" للمكفوفين تعرض أيضاً من المعاني المتنوعة والغير نمطية. هكذا يثنا الفنان لرؤية اتجاهه من منظور آخر بدلاً من الاتجاه التحليلي التقليدي للعناصر الشكلية فحسب والتي علينا أن نؤمن الكثير منها لغيابها، أو لتغيير أماكنها أو للتغير الجذري لوظائفها. وأحب أن أركز تأملاتنا على بعض الخصوصيات المفاهيمية في عمل "ريسنربو" التي بلغت ذروتها في هذا المعرض مكملة إحساس رحلة النمو والتطور و الظهور المثيرة للاهتمام والتي تم تناول مزاياها بالتفصيل. وأحب أن ألقى الضوء على هذه الجوانب المفاهيمية التي تتمتع بخصائص فعالة وجريئة بالإضافة إلى إلقاء الضوء على المدخل الذي يوضح القياس المنطقي بداخل الفنان كي نستوعب كل المتغيرات التجريبية، وكل الأبعاد الشكلية للأشكال، والطرق المتنوعة التي خاض فيها "ريسنربو" محاولاً فيها ومطبّقاً إياها في نشر استراتيجية تعطي معنى متمم لعمله.

وأحب أن أشير إلى التيارين الأساسيين للمعنى الذين يقدمهما معرض "ما وراء الملموس" على وجه الخصوص، والذي يوجه بشكل معلن لإجاز نوعين متباينين على الأقل من التأثيرات، ومستويين أساسيين من التواصل، مشتغلاً على قطاعين محددين من الجمهور والذي ينبغي علينا أن نضيف لهما مستوى ثالث من المعاني المتبقية والتي جُدها بين المستويات التي ذكرناها سالفاً. وهذا يحسب لأطول تصور لهؤلاء القادرين على إدراك كل التضمينات في الصورة الكلية.

|

ودعونا نبدأ بالترتيب. فبالنيابة عن جمهورنا من المكفوفين الأذكفاء في هندوراس فإن هذا العمل المفاهيمي للفنان "جورج ريستريبو" قد فتح باباً يقود لعدد لا نهائي من الطرق، بمعنى أن هناك مساحة غير محدودة مفتوحة للتواصل والتي يجب أن يتم توسيعها وتأكيدتها. لنفترض أننا لا نعرف من هو "جورج ريستريبو" أو أي شيء عن عمله أو مهنته. لنفترض أننا نعيش في عالم منفصل لا مبال وأحياناً عدائي حيث المعلومات فيه ضئيلة وغير كاملة وغير دقيقة، وفي كل الأحوال ليست كافية. لنفترض أن عالم الفنون التشكيلية وتاريخه وتقدمه وغزاته الروحيين ومزوره النشطين كان بالنسبة لنا عالماً بعيداً ومحرملاً ولا نملك إمكانية الدخول إليه. لنفترض أننا نعيش في عالم مواز هامشي قائم على التمييز تفصله حواجز متعنتة ليس فقط حواجز فهم ولكن حواجز أبسط أنواع الإدراك. وكلماتي التالية مأخوذة من الانطباعات الأولى التي تصورها "أرمانو سانشيز" الكفيف وهو المدير التنفيذي للاتحاد القومي لذوي الإعاقات، و"جليندا إيسترادا" المنسقة العام للاتحاد القومي للمكفوفين. فيقول لنا "أرمانو سانشيز":

"كنت في أحد مكاتب المنظمة الدولية للمعاقين أعالج بعض الموضوعات وأناقش بعض المشاريع المطلوب تمويلها عندما بدأ بعض الحضور بشكل غير متوقع في قراءة وطلب تسويق مشروع معرض "ما وراء الملموس". وعندما أخبروني عن ماهية النشاط بدا ذلك جديداً على مسامعي لأنه لم يتم تنظيم معرض للمكفوفين من قبل في هندوراس. ولقد فكرت أن لا بد أن يكون ذلك تجربة فريدة يستحق أن يجربها أحدهم. ولقد سألتوني المساعدة، وبالطبع فقد وافقت رغم أنه من الأنسب أن تسند هذه المهمة للاتحاد القومي للمكفوفين.

ودار بعقلي أن هذه اللوحات قد تم تخطيطها بطريقة ما لا أعرفها. فلم أقرأ من قبل عن كونها لوحات تجريدية .. وبالنسبة لشخص أعمى مثلي فإن ذلك يتراءى لي تجربة غنية، أن نتعلم شكل بعض الأشياء التي لم نرها يوماً مثل الثلج على سبيل المثال. ولقد فكرت في التجربة بمستوى النوعية أو الاستيعاب بواسطة المحتوى. لكنهم أخبرونا بعد ذلك أن عناوين اللوحات كتبت بطريقة برايل، ولقد سألت نفسي: من يمكنه فعل ذلك؟ هل يمكن أن الفنان نفسه يكتب

بطريقة برايل؟ لكنني استبعدت فكرة أن يكون الفنان أعمى. وسالت نفسي ماذا يمكن أن يكون دافعه وراء ذلك؟ هل يوجد أفراد عميان في عائلته؟"

إن حادثة وطبيعة هذا المشروع الغير معتادة هي التي جذبت انتباه هؤلاء الذين أكثر من كونهم متفرجون كانوا هم الممثلين الأساسيين. ولأن شيئاً مائلاً حدث لـ "جليندا إيسترادا" رئيسة الإتحاد القومي للمكفوفين وهو إتحاد يجمع منظمات الأقسام السبعة فقد تقدمت قائلة: "لقد كنت أحد منظمي المعرض، وكنت أحد المدعمن الرئيسيين له. ولقد ساعدت الفنان في عمل الدعوات وكتابة الأسماء واللوحات بطريقة برايل. وكنت أيضاً أحد المرشدين للمبصرين لأنهم كانوا معصوبي العينين وبالتالي يستطيعون لمس اللوحات أثناء شرحنا لمعانيها.

ولقد تعرفت على "جورج ريستريبو" عن طريق "كلوديا هيران" التي كانت تدرس لي في الجامعة حيث سأحصل على دبلومة في تنمية الموارد البشرية. وقد حدثتني "كلوديا" عن معرض لوحات للمكفوفين. وتساءلت بيني وبين نفسي كيف يعقل هذا إذا كنا نحن العميان لا نرى اللوحات؟

وكنت في مناسبات مختلفة أتلقى دعوات لمعارض دورية للمبصرين. وكنت أحضرها من باب المجاملة، لكنني كنت أحتاج أن أذهب مع شخص مبصر ليصف لي اللوحات المعروضة. وكنت دائماً أطلق لخيالي العنان. ورفيقي يعطيني تصورات حسية لكن أبداً لا يمكن أن يكون خيالي مثل الواقع.

وبدأت "كلوديا" تشرح لي ما فكر به "جورج" لكنه لا يعلم كثيراً عن التصور الذي يملكه المكفوفين عن العالم وبالتالي قد أكون أنا أكبر مساعد له في هذا الشأن. هكذا طلبت مني "كلوديا". ثم أخبروني أن اللوحات سوف تنفذ بطريقة النحت البارز high relief على أرضية بيضاء. ووفقاً للشكل الذي نتصوره عندما نلمس اللوحة ممرين أناملنا على الأسطح يكون ذلك هو معنى اللوحات. وعندما شرحوا لي كل شيء تحمست كثيراً وبدأت في شرح المشروع للآخرين المعاقين بصرياً!

نفس مؤثر القوة ومذاق التهور والتناقض هذين هو ما جذب انتباه أغلبية الجمهور الآتي من قطاعات اجتماعية متباينة والذين جمعتهم نية أن يجعلوا معرض "ما وراء الملموس" ليس فقط تجربة يستوعبها الجميع ولكن أيضاً مغامرة روحية، أن يحدث اتصال عميق بين العالمين المتجاهلين الذي يفصلهما حواجز متعنتة. وبهذا المعنى فقد فاق المعرض كل التوقعات.

هذه التجربة تشفر مقصد تعليمي عميق يفوق الأطر المعتادة للتعليم الشكلي. فبالنسبة للمكفوفين كان المعرض تجربة تعليم وتدريب متمتع أكثر من النشاطات الاجتماعية العادية الأخرى. وقد شعرنا من تقديرهم بالحاجة لتنظيم دورات تدريبية بهذا الشأن يشرف عليها مؤسسات المعاقين. علاوة على ذلك تجربة "أرمانو سانشيرز" في قراءته الشخصية للوحات تظهر أنه من الضروري التوصل لمنهج عملي ينظم القراءة اللمسية للأعمال وليس بالضرورة أن تكون بنفس ترتيب قراءة النصوص المكتوبة بطريقة برايل.

" لقد أحضر "ريستريبو" لوحة وطلب مني أن أمرر أناملي عليها. وشعرت ببعض القلق لما يطلبه مني، ولم أكن أعرف ما إذا كنت أفعل الصواب، وكنت خائفاً ألا أختبرني اللوحة بشيء وأن ذلك سيكون محبطاً للفنان ولفكرة التي يتحمس لها. وحاولت أن أكتشف بعض الأشكال. مستحيل! فقد بدأت يدي تستشعر شيئاً في اللوحة وبدأت أتحيل لربما تلك يد مثل يد طفل. ولقد وجد الناس في المنظمة الدولية للمعاقين الطريقة التي قرأت بها سطح اللوحة طريقة شيقة مثل شخص يقرأ بطريقة برايل من الشمال لليمين ومن أعلى للأسفل. رغم أنني في أوقات دمجت ذلك مع حركات أخرى أكثر تلقائية.

... ففي أسفل الجهة اليمنى وجدت توقيع الفنان، وقد حذروني أنه شيء لن أستطيع فك شفرته.. لكنني أحببت الملمس الذي أحياناً يكون خشناً كما لو كان شخص ألقى برمل أو بصمغ. وبعض الأجزاء كانت ناعمة فجذبت انتباهي مثلما يستخدم أحدهم الكثير من الصمغ. وفي نفس الوقت سألت نفسي كم سيكون ذلك مشوقاً للآخرين للمكفوفين؟ وكان لي بعض الشكوك حول السياق الثقافي. وكنت خائفاً أنه لن يمكننا الفهم. فمن جهة شعرت بضرورة أن يكون المبصرون على اتصال بالظلام المادي، لكن من جهة أخرى كنت خائفاً أن لا يستطيع المكفوفين أن يصفوا ما وجدوه في كل لوحة حيث أن ذلك في النهاية هو قضية عدم القدرة على التواصل بين المبصرين والغير مبصرين.

والآن نحن لسنا فقط أمام العمل الكلي لـ "ريستريبو" لكن أيضاً بداخله، وتاماً مثلما حدث في كل الأعمال المفاهيمية الأخرى (على سبيل المثال في معرض "النهب" Pillaging في متحف الإنسان الهنودوراسي). فإن الممثلين الرئيسيين وصلوا إلى نتيجة أنهم لم يدركوا فقط حقيقة أنهم أنفسهم سواء كانوا من العامة أو الفنانين أو المبصرين أو الغير مبصرين قد شكلوا جزءاً من العمل بل أن مشاعرهم واكتشافاتهم وتبديل المنظور الذي ينظرون به للعالم كل يوم والتكاتف الذي يظهر ويستدعي نواياهم للتواصل الاجتماعي كل ذلك يشكل جزءاً أساسياً من أعمال "جورج" المفاهيمية.



وكي نفهم النصف الآخر من المعاني المستغلقة فإنه من الضروري أن نحل أنفسنا محل ما لم تدركه حواس هؤلاء المبصرين الذين شاركوا في المعرض. فتخيل حجرة ضخمة خاوية، مجردة من أي زخرفة ماعدا بعض الأقمشة التي لا لون لها، بالطبع تلك بيئة خالية من أي لون غير الأبيض. ولا بد أن نلاحظ أنه بالنسبة لهؤلاء المبصرين فإن العينة الفنية تقدم سلسلة من المعاني البديلة: فمن جهة معاني الغياب المستدعي، والحس البصري الذي علينا أن نتجاهله ليس فقط عن طريق الإعداد المتأنى للمساحة المكانية المحيطة لصالح العينة الفنية، وبغياب اللون في الغرفة وبمشهدية العمل التركيبي ذو الطابع السوبرماتي، فهناك دعوة للصمت تنمو في الأبيض على الأبيض؟ ومن جهة أخرى بشكل مباشر وفي الحال وبناء على ذلك فإنه مفترض

حضور المعاقين بصرياً كلهم يرتدون السواد: متحمسون متحركون مبتهجون موسيقيون لكن أيضاً متواصلون ومعبرون ومتوسعون وحيويون.

ثم تأتي التجربة بين المبصرين التي عصبت أعينهم وتركوا خيالهم وحدسهم بقودهم بعشوائية ما ساعدتنا نحن العميان. ولقد ربط "أرمانو شانسييز" بعض التجارب ذات الدلالة بهؤلاء القوم :

"كوني مرشداً كان ذلك تحدي بالنسبة لي. ما الذي يجب عليّ أن أقوله للآخرين؟ فإذا لم يكن لدي مفهوم معين وإذا لم أكن واعياً بمقاصد الفنان فكيف لي أن أحث شخصاً آخر كي يفهم ما لا أفهمه أنا؟ أقول له ما أفكر به؟ أسأله عما يفكر أم ببساطة آخذ يده وأجعله يمسح اللوحة بيده ويكتشف ما يستطيع...؟"

ولم أكن أريد أن أكون مرشداً فقد كنت خائفاً من ألا أكون مستعداً. إلى جانب أنني علمت أن الجمهور يتكون من طبقة اجتماعية مختارة- طبقة عليا، مثقفة، عرفت ذلك من عطورهم وأنماط أحاديثهم وهمسهم الهادئ، وطبقة صوتهم، والتعبيرات التي يستخدمونها. وقد قدموني لأحد الأشخاص: " هذه السيدة حاصلة على بكالوريوس الفنون، وهذا رجل متخصص في الأدب" هكذا اعتقدت رغم أن الإنسان يكون مخطئاً في تفكيره أحياناً. ثم بعد ذلك ظهرت مشكلة أخرى كوني مرشداً لسيدة، ففي هذه الحالة هل علي أن أمسك يدها أم أن ذلك غير لائق؟! بعد ذلك كنت مرشداً لسيدتين، إحداهن تحدثت لي عن قرب واستمعت لي وأنا أصف انطباعاتي بينما أمرر أناملي على سطح اللوحة، وأحياناً كانت تُعرّف فكرتي وتوافق عليها، لكن في أحيان أخرى كانت تناقض فكرتي. لا لا كان ذلك بالأحرى شيئاً آخر؛ كانت تقترح.

والسيدة الأخرى كانت مديرة متحف الإنسان. ولم أكن أعرف ذلك حينها، ولحسن الحظ عرفت ذلك لاحقاً لأنه لو كنت أعرف ذلك وقتها لكنت توترت. ببراءة وهدوء كنت أمرر أناملي ببطء فوق إحدى اللوحات واصفاً انطباعاتي لهذه السيدة، وفي النهاية شعرت بالرضا لأن هذه السيدة كانت طيبة واتفقت معي في العديد من التأويلات التي اقترحتها.

وكان من المثير للاهتمام أن الأخطى ردود أفعال المبصرين معصوبي الأعين، محاولين اكتشاف كيف يقرأوا اللوحة بأصابعهم دون أن يروها، ومنصتين كي يعرفوا كيف يبحثوا عن مكان وكيف يعبروا عن خيالهم في كلمات مقارنة ذلك بمدى إدراكهم وفهمهم للانطباعات لاعبين دور الأعمى بدقة.

أنا أيضاً مسحت بيدي اللوحات وحللت بعضها بصحبة اثنين من الفنانين- ممثلين قليلاً، عرفت ذلك لأنهم كانوا على مقربة مني. ولم يعصبوا أعينهم فقد كانوا ينظرون إلى اللوحة بأعين مفتوحة وركزوا أكثر على تصحيح تقديراتي أو قدموا تعليقات جانبية بعد ذلك.

وقد شرح لي أحدهم الأشجار التي تغطي أحد جوانب التكوين. أما المنتصف فكان أكثر المناطق الخالية في اللوحة فقد وصف الفنان تلك المنطقة قائلاً "هذا صمت عظيم". وبعد ذلك طلبوا مني أن أمرر يدي على مناطق أخرى من اللوحة لم ألمسها بسبب التشتت أو الاستعجال.

"هذه هي السحب" هكذا أخبرني الفنان الآخر. وجاءني الانطباع أنهما مصورين فنانين أو على الأقل يعرفوا الكثير عن فن التصوير بسبب لهجة الثقة التي يتحدثوا بها.

والتجارب الحديثة كانت متنوعة وعميقة. وهذا المعرض باختصار يمثل فرصة للتعبير عن التكافل الإنساني العميق، مغامرة للخيال والحدس، محاولة اكتشاف معاني وإدراكات كانت عصية على الوصف تم توصيلها بوسائل الكلمة المنطوقة وذلك هو الوسيط المشترك، مما خلق منطقة استثناءات بين الملموس واللاملموس.

وينبغي علينا أيضاً أن نفكر بشكل منفصل في الوظائف التي تؤديها اللغة الشفوية تحت تلك الظروف الخاصة - هذا الكوبري الزلق وأحياناً المبهم الممتد بين المبصرين والغير مبصرين، بين الملمس والخيال. والتماسك بين ما أوحى به عناوين اللوحات والمعلومات التي قرأتها أنامل اليد كان حاسماً في هذه المناسبة.

وبالنسبة لـ"جليندا إيسترادا"، رئيسة الإتحاد القومي للمكفوفين:

"لقد أحببت بعض اللوحات دوناً عن الأخرى، أحياناً لاسمها، على سبيل المثال إحدى اللوحات كانت تسمى "أسرع!" والتي كان بها بعض الخطوط السريعة المرسومة عبر سطح اللوحة، وتبدأ هذه الخطوط عريضة وسميكة، طويلة وبطيئة ثم تبدأ في التسارع بينما تمر عليها بأصابعنا فتصبح أرفع، ثم تتكسر إلى مجموعة من البروزات حتى تختفي.

وعنوان اللوحة مرجع على قدر كبير من العون. فإذا جذب العنوان انتباهي فإن ذلك يساعد في فهم المعنى. وإذا لم يحدث هذا الاغذاب فيكون من الصعب بمكان فهم المعنى. وفكرت في ذلك فتلك كانت المرة الأولى التي يستمتع فيها مجموعة من المكفوفين بلوحات تشكيلية. وفي بادئ الأمر فإن عنوان اللوحة يوحى لنا بشيء ما، ثم عندما نلمس اللوحة نبدأ في تخيل الشجر والأشكال والمنازل. وتخيّلنا أننا جلّس أمام ما ألح به الفنان، وأننا نستطيع تحديد الفكرة التي يقدمها لنا."

والاستنتاج الختمى: لا يمكن أن تنفصل اللوحة والعنوان عن بعضهما خاصة في هذه الحالة. فيجب أن يكونا منتجين لعملية منظمة واحدة. وكأجزاء لهذه العملية يجب أن يتم ذلك بمراحل تعليم تدريجية ومنهجية مسبقة. على سبيل المثال: إلى جانب تنظيم كورسات فنية نظرية وتطبيقية للمكفوفين فإنه ينبغي أن ندرب فنانى المستقبل كي يقدموا أعمال فنية للمعاقين، وأن يكون ذلك أحد التخصصات العادية التي يختار من بينها الطلاب في مدارسنا وأكاديمياتنا الفنية.



جزء من الهالة المعبرة الواسعة للعمل الكلي لـ"ريستريبو" مشتقة من قدرته على توسيع النظريات والمفاهيم المعتادة. وعمل فناننا الكولومبي يغير الأعراف السائدة في بعض النقاط الرئيسية التي تهرب من الأطر المفاهيمية للنقد التقليدي، الأكثر من ذلك فإنه لا يحركه القواعد

أو المعايير السائدة لكن يحركه المتعة في خلق وإبداع أشياء وتوليد أفكار ككل بشكل جماعي بادئاً من الدوافع الملحة للتكافل الإنساني.

وبمعنى أوسع فإن المهم في تلك المجموعة الخاصة من الأعمال الخالية من الألوان التي أعدها الفنان "جورج ريستريبو" هو تواجدها الاجتماعية، والطرق المتعددة التي تؤثر بها على اللاوعي الجمعي سواء كان ذلك تأثيراً جمالياً أو أخلاقياً. ومن جهة أخرى إحياءاتها المفاهيمية، و مدى تأثيرها على إيقاع الحركات الجمالية والتقنيات و المفاهيم الذي يعلو أو يخبو في البيئة من حولنا.

وبالطبع فقد قدم "ريستريبو" عملاً أليماً في هذه المناسبة. فعناصر لغته تأثرت كثيراً بتغير الظروف. فالزهد الذي عرفه قبلاً في أعمال سابقة قاده هذه المرة أن يتخلى عن اللون ومظهر النسب المرئية، والإيقاع البصري الذي يربط أجزاء الطبيعة. وقام بالتجريب مركزاً على الخصائص الباعثة على الحركة، التشكيل اللمسي، ليونة المواد التي يستخدمها في تضاد يخدم الفكرة، وتوالي وتعديلات الإيقاع اللمسي.

ومن حيث التطور الشخصي للفنان فمن الواضح أن هناك نقلة وقفزة غير عادية في مساره الفني. أحد القفزات القوية التي قد تتمهل أي عقلية تحليلية كثيراً قبل أن خلالها وتدمجها كحركة موحدة داخل السياق الفني. لأنه في هذه الحالة ما يضمن وحدة الأسلوب ليس جناس المواد والإجراءات لكن التماسك الناتج عن المظاهر اللموسة التي تتبنى هذا السياق وتكيفه أثناء تطورها وظهورها.

وحن نتعرف في "جورج ريستريبو" ليس فقط على موهبة شخصية خلاقة في تنفيذ أعمال تقديمية مهمة لكننا نرى أيضاً علامات لقائد أوركسترا سيمفوني يقوم بخلق إرادة اجتماعية، والذي بدافع المتعة والنداء الباطني للعمل فهو يعزز وينظم عدد كبير من أولئك المحيطين به كي يعدلوا ويجددوا النظريات والمفاهيم و التصنيفات، ويفتحوا قنوات جديدة للتعريفات القديمة البالية مجددين ليس فقط الإجراءات والمواد لكن أيضاً المواقف والقيم الاجتماعية، وكل مرة يدمج معه إرادة جديدة تنخرط في العمل المفاهيمي من قطاعات اجتماعية لم تكن معروفة من قبل ليلعبوا دور الممثلين الرئيسيين في تلك الظاهرة الفنية.

Translated by: Wafaa Shohdy - PHD in history of art -

ترجمة: وفاء شهدى

دكتورة فى تاريخ الفن

**"Art for the Visually Impaired by Jorge Restrepo —
A JUNCTURE BETWEEN THE TANGIBLE AND THE INTANGIBLE"**

By: Donaldo Altamirano, Nicaraguan writer,
MA in Philosophy, Literature and Visual Arts
Tegucigalpa, Sunday 9 October 2005

www.jorgerestrepo.com